

رحلة في برقة (١)

لمحة تاريخية

تاريخ برقة من الموضوعات التي شملها الغموض والإهمال بين جمهور المؤرخين، بالرغم من أن المصادر التاريخية تشير بوضوح إلى ما كان لهذا الإقليم من مجد تالد ومدنية عريقة في العصور الغابرة . ويرجع أقدم عهدنا بظهور برقة على مسرح الحوادث في حوض البحر الأبيض المتوسط إلى القرن السابع قبل الميلاد ، حينما نزل جماعة من الإغريق من سكان جزيرة ثيرا من بحر إيجه على سواحل برقة ، واستوطنوا بها ، وأسسوا في سنة ٦٤٠ ق. م. مدينة ثورينا (الشحات) ، وهي أول المدن الخمس التي اشتهرت فيما بعد باسم « بنطابوليس » . بذلك تدخل برقة ضمن نطاق النفوذ الإغريقي الشرقي القديم في الوقت الذي يلاحظ فيه أن طرابلس تذهب إلى الفينيقيين المقيمين غرباً من قرطاجنة . وبعدئذ تتوالى الأحداث والغزوات التي تعزز هذا الاتجاه الشرقي في برقة منذ بداية تاريخها . فعزوة قبيل مصر سنة ٥٢٥ ق. م. يتلوها خضوع برقة لسلطانه ، وما حدث في عهد قمبر يتكرر بشكل أقوى وأوضح عند غزوة الإسكندر المقدوني لمصر

(١) أرى من واجبي وأنا في صدد الكتابة لأول مرة عن هذه الرحلة أن أبدأ بتقديم شكرى وتقديرى لجميع من نفضلوا بمساعدتى خلال مدة إقامتى في برقة ، سواء في ذلك رجال الحرب الذين يدرون دفة الحكم هناك في الوقت الحاضر ، وإخواتنا العرب الذين يعيشون اليوم في أمن وطمأنينة . وأريد أن أخص بالذكر في هذا المقام والى برقة البريجادير د. س. كامنج Brigadier D. C. Cumming الذى لم يأل جهداً في تسهيل مهمتى بكل الوسائل الممكنة ، فقد وضع تحت تصرفى عربة خاصة أتوجه بها حينما شئت ، وأرسل معى مرشداً من رجاله المتأخرين الذين يعرفون برقة وآثارها حق المعرفة ، كما أنه أنزلنى ضيفاً مكرماً في نوادى ضباطه وفي دور الحكومة بالأقاليم حينما حلت . ولأنى لولا هذه العناية الفائقة لما استطعت أن أقوم في أسبوعين فقط بما كان يصب على القيام به في شهور لو أننى اعتمدت على وسائل النقل البدائية في بلاد واسعة الأجزاء الا تكتنفها الطرق الحديدية أو المواصلات السهلة الحديثة .

سنة ٣٣١ ق. م. ، وتظل برقة في أيدي البطالسة إلى أن تنتقل هي ومصر ذاتها لحكم الرومان سنة ٣١ ق. م. والحكم الروماني في برقة فاتر في مجمله ، لا يصحبه ذلك النشاط التجاري والإنتاج الزراعي الذي كانت البلاد تتمتاز به في العصر السابق . وأهم حادث في القرون المسيحية الأولى هو ثورة اليهود التي اندلعت ههنا في طول البلاد وعرضها سنة ١١٥ ميلادية ، عندما قام نحو خمسين ألف يهودي مسلحين يقيمون في برقة ، واتهموا فرصة غياب الإمبراطور تراجان وانشغاله في حروبه الشرقية على حدود فارس ، فذبحوا الأهليين الآمنين ، وأخذوا في تخريب المدن الإغريقية الزاهرة تخريباً منتظماً لمدة عامين كاملين ، حتى قيل إن برقة لم تستطع منذ تلك الحركة اليهودية العابثة استعادة مكاتها من العالم القديم في القرون السابقة . وفي سنة ٢٩٧ م. عندما قسم دقلديانوس الإمبراطورية الرومانية إلى قسميها الشرقي والغربي ، تذهب برقة مع مصر إلى القسم الشرقي البيزنطي ، وتبقى في حكم أباطرة القسطنطينية إلى أن تدخلها جحافل العرب الظافرة بقيادة عمرو بن العاص في سنة ٦٤٢ م. ولكن الفتح العربي لم يغير كثيراً من عادات الناس وعقائدهم وطرق معاشهم في برقة إلى نهاية القرن العاشر الميلادي ، غير أن قبائل البدو المعروفة باسم بني هلال وبني سليم تهاجر من الجزيرة إلى مصر فبرقة في القرن الحادي عشر ، وتعتبر هجرتهم هذه أعظم حادث في تاريخ برقة الوسيط ؛ لأن تلك القبائل العربية الخالصة تقيم هنالك ، وتستأصل العناصر الغربية عنها من إغريق وغيرهم شيئاً فشيئاً كما تختلط بالسكان الأصليين من البربر الرحالة وتمتصهم في صلبها ، فينتج من ذلك عنصر تغلب عليه العروبة ، وهو العنصر الذي ظل سائداً في برقة حتى اليوم ، بالرغم من استيلاء الأتراك عليها عام ١٥١٧ ، وقيام أسرة القره منلى التركية التي استقلت بها في سنة ١٧١١ . وفي سنة ١٨٣٥ يستردها السلطان مراد الثاني لسلطنته ، وفي سنة ١٩١١ تنتقل برقة مع طرابلس بمقتضى معاهدة لوزان إلى حكم الإيطاليين . إلا أن الحرب العظمى الأولى تحول دون دخول هؤلاء الحكام الجدد في مستعمرتهم الإفريقية ، ولا يتم استيلاء الإيطاليين الفعلي على طرابلس وبرقة إلا في سنة ١٩٣٢ بعد كفاح طويل مجيد من أهل تلك البلاد . ولكن الحرب العالمية الثانية كما يعلم الخاص والعام تستأصل شأفة المستعمرين الإيطاليين من إفريقية ، وتغير مجرى تاريخ برقة إلى هدف لا يعرفه اليوم إلا الله .

التعريف ببرقة

من الأمور التي تدعو للأسف جهل الشرقيين ببرقة جهلا يكاد يكون تاما؛ وأغلب الظن أن هذا الجهل يرجع إلى عاملين : الأول وقوف الإيطاليين أيام استعمارهم في وجه الأجانب وردتهم عن زيارة ذلك القطر . والثاني إعراض الناس أنفسهم عن هذه الزيارة لاعتقاد شائع بأن برقة ليست إلا جزءاً من الصحراء الكبرى ، ومن ذا الذي يرغب في زيارة الصحراء ؟ وربما يدهش القارئ عندما يؤكد له بأن نضرة الأودية ، وخضرة الجبال ، وجمال الطبيعة ، وتنوع المناظر التي تأخذ بمجامع الألباب ، ورقة الهواء وصفائه ، تتجلى في ربوع برقة ، حتى إن المرشح ليؤخذ خياله وهو بين جبالها ووادها إلى أجل ما في أوروبا الجنوبية من مرتفعات وأودية وسواحل تبهر الأنظار . وليس من المبالغة في شيء ما قاله بعض الكتاب الأوربيين بأن طبيعة برقة وهواءها لا يختلفان عن طبيعة أواسط إيطاليا وهوائها ، على حين يصرح بعض علماء طبقات الأرض بأن الجبل الأخضر الواقع بين خليج سرت وخليج السلوم إنما هو امتداد لجبال أوروبا الجنوبية وإيطاليا على وجه أخص .

ويضاف إلى جهلنا بطبيعة برقة جهلنا بآثارها ؛ فقد اعتاد الناس على التفكير بأن ربوع برقة خالية من شواهد عزاها القديم ورخاؤها التجاري العظيم في العصور اليونانية الرومانية . وحقيقة الأمر أن آثار برقة ظلت معالمها مطموسة حتى دخلها الإيطاليون ، فأوفدوا لها الوفود والبعثات العلمية التي أخذت في التنقيب وترميم الأبنية الأثرية المتداعية إلى آخر عهدهم بها . ومع أنهم كشفوا عن الكثير من تلك الآثار ، فلا زالت هنالك فرص هائلة لبعثات عدة في المستقبل ؛ إذ لا تزال في برقة مناطق أثرية واسعة لم تستها يد الحفارين بعد . ومهما يكن من شيء فإن برقة أصبحت الآن عامرة بالعاديات التي تستحق العناية والزيارة والبحث العلمي .

وخطأ آخر شائع بين الناس ، ألا وهو اعتبار برقة جزءاً من طرابلس بقدر ما هي في نظرم جزء من الصحراء اللوية . وما هذا إلا نوع من الشطط الذي كانت تملسه الدعاية السياسية والظروف الاستعمارية القاسية التي ربطت

رحلة في برقة

حُتِف برقة بطرابلس أيام الحكم الإيطالي ولكن جغرافية برقة تختلف كل الاختلاف عن جغرافية طرابلس ؛ كما أن تاريخ برقة غير تاريخ طرابلس ، وقبائل برقة غير قبائل طرابلس ؛ فهم أنقى عنصراً في عروبتهم من أعراب طرابلس ؛ وأشد تمسكا بيداوتهم من غيرهم ، ولغتهم أقرب اللهجات إلى اللغة العربية الفصحى القديمة .

كل هذه المظاهر والخصال لمستها خلال رحلتى التى أضعتها اليوم بين يدى القارئ الكريم على أشد ما نكون من الاختصار ، حرصاً على صفحات « الكاتب المصرى » وما تحتويه من جواهر الكلم ، وأملا فى إصدار رسالة أخرى مستقلة فى هذا الموضوع الذى يجب أن يكون له مكان فى مكتبة كل قارئ عربى .

الى طبرق ثم درنة

ركبت القطار الحربى الكبير الذى يبرح القاهرة فى يوم الأحد من كل أسبوع إلى طبرق ، فكانت رحلة ممتعة على ما فيها من عناء ، يشاهد فيها المسافر ذلك المسرح الخالد الذى دارت فيه رحى وقعة العالمين بالصحراء الغربية التى تمتد آثارها من العامرية إلى مرسى مطروح وما وراءها . فى كل مكان يشاهد الانسان مناطق الأسلاك الشائكة التى تحمى الجهات العامرة بالألغام ، وطواير الدبابات العاطلة ، والمدافع والعربات المحطمة ، وخطوط الدفاع المنقورة فى الصخر وغير ذلك من المشاهد العديدة التى ساعدت على فوات الوقت سراعاً ؛ إذ أننا تركنا القاهرة قبيل التاسعة صباحاً ووصلنا العامرية فى منتصف الثالثة بعد الظهر ، وشاهدنا ما أمكن مشاهدته فى منطقة العالمين حتى أدركنا الليل ، ثم أصبح الصباح علينا فيما وراء الحدود المصرية . وقبيل ظهر الاثنين وصل بنا القطار مرتفعات طبرق الشرقية ، وعلى ذلك تكون هذه المرحلة الأولى قد استغرقت حوالى ٢٧ ساعة من القاهرة إلى طبرق بالقطار .

هنالك قابلنى مندوب الوالى ، وكان ترحابه بنى حائماً . فبعد أن تناولت غذاءً عربياً على مائدته قفنا للطواف بالمدينة ، فإذا بشوارعها تكاد تكون خاوية ، وبيوتها فى جملتها مهدمة ، إلا ما أصلحه رجال الإدارة والحكومة لاقامتهم .

وطبرق تقع على هضبتين يفصل بينهما وادٍ غير سحيق ، يهبط منه الواحد شمالاً إلى خليج واسع عميق هو ميناء المدينة ، ولا يرى فيه الإنسان غير المراكب الفارقة من فعل الغارات الجوية . ويبدأ من الطرف الجنوبي للوادي ذلك الطريق العظيم الذي عبده الإيطاليون من طبرق إلى حدود تونس ، ويبلغ طوله نحو ألفي كيلو متر . أما الهضبة الشرقية التي بها محطة طبرق فهي منطقة حرام تشغلها الجنود ويعمها عتاد الحرب . وتقع المدينة أو بالأحرى ما بقي منها على الهضبة الشرقية . وليس بطبرق من آثار قديمة تذكر سوى أجزاء تافهة من الحائط الروماني ومخزن المياه البيزنطي وهو كبير وعميق في شكل مستطيل منقور في الصخور الجنوبية ليجتمع فيه ماء المطر للاستعمال وقت التحاريق .

بعدئذٍ ركبنا السيارة الحربية التي خصصها الوالي لخدمتي ، وانجهدت صوب مدينة درنة على بعد مائتي كيلومتر من طبرق ، وفي هذه المرحلة من الطريق تكثرت على جانبيه آثار موقعة إفريقية الشمالية بين الحلفاء وجنود المحور ، من طواير مصفحة عاطلة ، إلى هياكل طائرات محترقة ، وعربات مقلوبة ، ومدافع قواعدها مهشمة ، وغير ذلك من أدوات القتال . ولاتنس مقابر القتلى يراها الرائي بين آونة وأخرى . وأول هذه المقابر . وأوسعها مقبرة العلمين ، تظهر للمسافر من القطار على المرتفعات الشمالية في شكل ثلاث غابات كبيرة من الصلبان البيضاء ، أولها لقتلى الإنجليز ، والثانية للألمان ، والثالثة للإيطاليين ، ويرفرف عليها جميعاً في أعلى النقط علم أبيض كبير .

وأهم ما لفت نظري في هذا القسم الأول من الرحلة هو عظمة ذلك الطريق الكبير الذي عبده موسوليني في عرض البلاد ، ثم جعله مركزاً مبدئياً للنشاط الاقتصادي والزراعي في برقة ، فأسس المزارع على جانبيه ، وابتنى الاسترلحات لضمان راحة المسافرين على مسافات تبلغ نحو عشرين كيلومتراً ، ولكنها أصبحت خاوية على عروشها ، إذ انتزع الأعراب الرحل أبوابها ونوافذها ، وحملوا ما كان بها من أثاث .

وبعد مسيرة أربع ساعات انحرف السائق بالسيارة عن الطريق الرئيسية شمالاً تجاه البحر . فلما وصلنا حافة المرتفعات الداخلية وإذا بنا نطل على منظر من أبدع ما رأيته العين : يهبط الجبل فجأة إلى سهل شديد الخضرة ، ينتهي

بخليج شديد الزرقة ، قامت عليه مدينة بيوتها ناصعة البياض ، تحيط بها الحدائق الغناء . وقد شغف الظليان بدرنة في أيامهم ، ووصفوها لجمالها بأنها جوهرة البحر الأبيض ، وزارها موسوليني في زمانه ، وآثار الترحيب به شاخصة في أعلى الجبل حيث نُقشت في حروف كبيرة جتارة العبارة W il Duce « ليحي الزعيم » .

ليس في درنة مخلفات تاريخية قديمة تستوقف السائح ، ولكن جمال المدينة وحسن تنسيقها ، وصفاء حماماتها البحرية ، وتوفير سبل الراحة في منازلها ، وكثرة حدائقها ، ونظافة شوارعها ، وطيب هوائها ، جعلها محط رحال السائحين الإيطاليين في الماضي .

وقد شاهدت بها قباب المرابطين ، وزرت سوقها وتتكوّن من عدة شوارع ضيقة متراسة مرصوفة بالحجارة ومسقوفة بالخشب كعامّة الأسواق الشرقية في أغلب مدن إفريقية الشمالية . وتعدّ دار الحاكم فيها آية في فن المعمار ، وربما كانت المبالغة في تجميلها راجعة إلى إعدادها لاستقبال موسوليني .

قورينا

قورينا أو سيرين أو الشحات كما يسميها عرب برقة اليوم تقع على مسافة تبلغ نحو ثمانين كيلومتر غرب درنة على مقربة من الطريق الرئيسي ، وبينها وبين ساحل البحر عشرة كيلو مترات حيث توجد مينائها أبو لونيا التي تدعى الآن مرسى سوسة .

وقورينا عاصمة برقة القديمة في العصور اليونانية الرومانية ، كما أنها أهم مركز للعاديات في تلك البلاد ، وقد تعدل أعظم المدن والعواصم الأثرية مثل الأقصر وأثينا وروما إلى حد بعيد ، غير أن نصيبها من التخريب كان أدهى وأشد ، نظراً لما أنزله اليهود بها في ثورتهم الكاسحة سنة ١١٥ - ١١٧ م . حين ذبحوا سكانها ، وهدموا معابدها ومبانيها . ولقد حاول الإمبراطور هادريان أن يُميد لها مكاتها الأولى ، فبأدر بينائها من جديد ، ولكن جهوده لم تثمر كثيراً ، إذ أن قورينا التي كانت مركزاً من مراكز الفن والثقافة

الإغريقية (١) تأخذ بالرغم من ذلك في التدهور السريع ، ويهجرها من بقى من سكانها القلائل ، حتى إنك لتجدها وقد أضحت خراباً بلقماً في غضون القرن السادس الميلادى .

نشأت المدينة القديمة ، كما يتضح من آثارها ، على جبلين يفصل بينهما وادٍ ضيق غير عميق ، تكتنفه الطريق الحديثة الوحيدة التي قامت على جانبيها قرية الشحات اليوم . ويمكن تقسيم آثار قورينا إلى مجموعات ثلاث ، الأولى منها على قلة الجبل الغربى حيث الأكروبول ، وأهم مشتملاته قبر الملك باتوس مؤسس قورينا (٦٤٠ ق.م .) ، والسوق الكبيرة (الفوروم) التي تضارع في اتساعها ودقة بنائها أسواق روما القديمة ، ومعبد جوييتير ، وآخر لعبادة قياصرة الرومان (قيصرون) ، وعدد من القصور التي كشف عنها حديثاً ، نخص بالذكر من بينها قصر جانوس العظيم (٢) من مؤسسات العهد الميلادى الأول ، ويمتاز إلى جانب دقة الفن والمعمار بأمثلة نادرة من النسيفساء التي ازدانت بها أرض حجراته ؛ فهذه حجرة تتوسطها رأس ميدوسة ، وتلك أخرى صوّرت في أركانها رسوم آدمية تمثل الفصول الأربعة ، كلها ناطقة في ثوبها القشيب من الألوان الزاهية .

أما المجموعة الثانية فهي على الجبل الشرقى ، وتشمل المعبد العظيم للإله زيوس ، وملعب المدينة ، وبقايا كنيسة كبيرة من العصر المسيحى . غير أن الجانب من المدينة قد عفت أكثر رسومه ، ولم يبذل الاثريون والحفارون إلاّ جهداً مذكوراً للكشف عن معالمه الدارسة .

(١) من بين الأسماء الخالدة التي أمجبتها قورينا في عالم الفلسفة والأدب والعلوم الاغريقية نذكر على وجه التمثيل اريستيب (٤٣٥ - ٣٦٠ ق.م .) تلميذ سقراط ومؤسس مدرسة قورينا الفلسفية ، وقلباق (٣١٠ - ٢٢٥ ق.م .) الشاعر اليونانى وبراوستين (٢٧٦ - ١٩٥ ق.م .) Enatosthenes أول جغرافى قاس محيط الكرة الأرضية ، وكارنياد (٢١٤ - ١٢٩ ق.م .) Carneades مؤسس الأكاديمية الجديدة في أثينا ، والأسقف المسيحى سينيزيوس (٣٧٥ - ٤١٦ م .) Synesius آخر فلاسفة الأفلاطونية الحديثة .

(٢) إن جانوس هذا كان كبير كهنة الإله أبللو ، ويزعم بعضهم أنه كان من أثرياء نجار قورينا وربما جمع بين الصناعتين بدليل الثروة والرفاهية التي في قصره ، ويظهر أنه عاش في القرن الأول وأوائل القرن الثانى الميلادى .

والمجموعة الثالثة واقعة عند مخرج الوادى حيث توجد هضبة تطل على السهل المنبسط عند قاعدة الجبلين . وعلى تلك الهضبة بنى القدماء من الإغريق معبداً للإله أبُللو على مقربة من مغارة سميت باسم الإله نفسه ، ومنها تتدفق المياه الجارية من بطن الجبل ليل نهار ، وكان الناس يهرعون للاستشفاء بها من جميع أقطار العالم القديم . وإلى جانب معبد أبُللو يوجد معبد أرتيمس وهو صغير . وفي ناحيته الجنوبية حوض السباحة والحمامات العامة ، وفي أحد أبنائها مجموعة من التماثيل الفنية الرائعة ، يتوسطها تمثال كبير من الرخام للإسكندر المقدونى وهو نادر ، ورأس دقيقة الصنع للإله زيوس . وفي الجهة الشمالية وراء المعبد عدة أبنية ، أهمها دار التمثيل (هيبودروم) من العصر الرومانى وهى صغيرة بعض الشيء وئسكنها من أحسن الأمثلة فى هذا الصدد .

ويحيط بكل هذه الآثار التى تمثل مدينة الأحياء حائط حصين كثيف طوله نحو ثلاث كيلواتر مترات . وخارج هذا الحائط من كل النواحي ، تقع مدينة الأموات التى تفوق جميع مثيلاتها فى العالم اليونانى الرومانى القديم من حيث الكم والكيف على السواء . والنظر من الهضبة الغربية إلى سطح الجبل الشرقى يرى المئات بل الألوف من المقابر المنقورة فى الصخر طبقات فوق طبقات من أعلى الجبل إلى أسفل السهل ، أكثرها قد كشف ، ولكن بعضها بدون شك لم يكشف عنه بعد . غير أن محتويات تلك القبور نهبت إلا التوايت الحجرية الثقيلة ، ولم يبق من النقوش الفنية على جدرانها سوى اليسير . ومن الظواهر الغربية أن عرب تلك المنطقة وضعوا يدهم على أغلب تلك القبور ليستعملوها منازل لهم ومراحاً لقطعانهم فى الليل .

وأبولونيا أو مرسى سوسة ، وهى كما ذكرنا ميناء قورينا ، على مسيرة عشرة كيلومترات إلى الشمال الشرقى منها ، وليس فيها من الآثار سوى كنيستين من العصر المسيحى البيزنطى ، إحداهما ترجع إلى القرن الخامس الميلادى ، وأغلب الظن أن عمدها الكثيرة قد أخذت من بناء أو معبد وثى أقدم عهداً . وفيها أمثلة حسنة من التسيفساء ذات الرسوم الحيوانية والنباتية . أما الثانية فقد بناها الإمبراطور جستينيان حوالى عام ٥٣٥ م وجاء بأعمدها الرخامية من محجره الشهير فى بروكونوسوس على شاطئ الدردنيل ، وحالتها أقل جودة من حالة الكنبدة الأولى لطفيان البحر عليها . أما المدينة الحديثة فهى أكبر بكثير من قرية

الشحات ، تأنق الطليان في تزيين ميادينها الفسيحة وشوارعها المستقيمة الواسعة بالأشجار الباسقة والنوافير الجميلة التي تتفجر منها المياه الجارية. ولا أدري لماذا نزع الطليان إلى طلاء منازلها باللون الأحمر الوردي على خلاف عاداتهم في طلاء مساكنهم في بقية المدن بإقليم برقة باللون الأبيض الناصع .

ذكر بات من الشحات

إذا ذكرتُ قورينا أو الشحات فلا أذكر معها آثارها فحسب ، وإنما أذكر رحلتى إليها من درنة وزيارتى رأس الهلال ومنزل بالبو الصيفى في الطريق ، كما أذكر البيت الذى خصصته لإدارة لسكنائى ، وأذكر يوماً قضيته مع مشايخ عربان قبيلة الحاسة ، وآخر في زيارة قرية البيضاء .

أما رأس الهلال فالطريق المؤدية لها تتفرع من الطريق الرئيسية شمالاً عند مكان يدعى لملودة ، وطول الطريق الفرعية عشرة كيلومترات أسسها الجنرال بالبو أيام صولته خصيصاً للوصول إلى البقعة التى انتقاها لى تكون مقره الصيفى . ولا نبالغ إذا قلنا إن المنطقة التى يخترقها المسافر في طريقه إلى رأس الهلال لا تقل في جمالها عن مناطق السياحة المعروفة بأوروبا ، حتى إن المتأمل في جبالها وأوديتها ليسبح به الخيال إلى حبال الغابة السوداء أو جبال ويلز أو منطقة البحيرات الإيطالية أو ساحل الريفييرا . أما منزل بالبو — وهو اليوم قاع صنفص وأثر بعد عين — فإن موضعه آية من آيات الله في جمال الطبيعة وجلالها ، ابتناه صاحبه على رأس جبل صغير متفرع من سلسلة الجبال العربية عند فم الوادى على غرار حصون القرون الوسطى التى طالما يراها المرء في سياحاته بوادى الرين ؛ يهبط منه البصر إلى سهل سحيق تتوسطه قرية رأس الهلال بين المزارع فى حلالها السندسية ، ويظهر البحر وراءها فى زرقة عجيبه لم أشاهد مثيلها إلا من الطائرة على ارتفاع كبير . هنا تتجلى بحق روعة الطبيعة وهدوءها ، وهنا مهبط للوحى والشعر ، وهنا رقة الهواء وصفائوه .

وقرية الشحات ذاتها تذكرنى تماماً بقرى ويلز الشمالية ، كما يذكرنى المنزل الذى أسكننى الحاكم إياه بمنزل كنت أفطنه صيفاً فى إحدى تلك القرى النائية ، فهو مثله على جبل عال أطل منه على وادٍ فسيح تحده سلسلة أخرى من

وحلة في برقة

المرتفعات والتلال ، وجميعها مكسوة بالحضرة التي تريح البصر والنفس والذهن المضمي ، وكلاهما خالد للهدوء ، ويتخلل البدن فيهما ذاك الهواء الجبلي المنعش ، غير أن متزلي بالشحات امتاز عن نظيره في ويلز بمحديقة تحوى من أشجار النفاكمة ومن الزهور ألواناً شتى لا نعرفها في تلك المناطق الشمالية الباردة . ولا أنسى يوماً قضيته مع المتصرف (أو الحاكم) بين مشايخ قبيلة عربان الحاسة داخل الجبل الأخضر في إحدى المزارع التي كان الإيطاليون قد عمّروها ثم هجروها أثناء الحرب (١) . فبينما نحن في طريقنا بين تلك المزارع ، لاحظت وجود خيام منصوبة بجوار البيوت المشيدة التي ابتناها المستعمرون الإيطاليون في الماضي واستولى عليها العرب في الحاضر . فلما سألت عن ذلك قيل لي بكل بساطة إن العرب يفضلون البقاء في خيامهم ويتركون المنازل للسمى (أى الماشية) في الليل . وإن دل هذا الموقف العجيب على شيء فإنما يدل على احتفاظ عرب برقة بحياة البداوة القديمة أكثر من إخوانهم الذين نزحوا من جزيرتهم الأصلية للحضر شرقاً وغرباً وشمالاً فتحضروا بحضارة أوطانهم الجديدة وذهبت بدواتهم هباء منثوراً .

(١) مشروع الاستعمار الزراعي الإيطالي لبرقة من الموضوعات التي جلبت عليهم سنخ العالم العربي ، لأنهم انتزعوا أكثر تلك الأراضي بالعنف ، وأسكنوا فيها أسر المستعمرات ، ونوا لهم فيها البيوت والمزارع . وفيما يلي بيان الأراضي الصالحة للزراعة مما استولى عليه المستعمرون الإيطاليون ما بين سنة ١٩٢٢ وسنة ١٩٣١ :

٤٣٤٤١ هكتاراً	اشترت من العرب
٨٨٤٤	» تابعة أصلاً للحكومة (وهى الدومين)
٦٠٠٠	» صودرت من الثوار العرب
٦٢٢٢٥	» صودرت من الزوايا السنوسية
١٢٠٥١٠	» المجموع

والمسكن الواحد يساوى حوالى فدانين ونصف ، فتكون جملة ما استولى عليه الإيطاليون من الأراضي الزراعية يوازي أكثر من ثلثمائة ألف فدان ، بنوا عليها ما بين سنة ١٩٣٣ وسنة ١٩٣٩ من البيوت والمزارع المعدة على أحسن طراز أوربي ١٨١٥ منزل ومزرعة ، يراها المسافر على جانبي الطريق الرئيسية في الجبل الأخضر ، وبين المنزل والمنزل نحو أربعة كيلومترات للزراعة ، وتنقسم هذه المزارع إلى مجموعات ، لكل مجموعة في إقليمها الخاص شركة تعاونية لها مركز مشيد ، يشتري منها الزراع حاجاتهم ، ويودعونها محاصيلهم ، ويلحق ببناء الشركة صالة كبرى يقيمون فيها حفلاتهم ونشاطهم الاجتماعى ، وكنيسة يصلى فيها المصلون يوم الأحد من كل أسبوع .

وصلنا الدار التي اجتمع فيها للقائنا مشايخ الحاسة ، وتناولنا طعام الغداء ، ولم يكن مع الاسف عربياً خالصاً كما كنت أرجو ولم يكن أوروبياً بحتاً ، وإنما أراد صاحب الدار أن يسر أنظارنا بما ظنه يتفق وذوقنا الحضري ، فقدم لنا الحساء فالدجاج والخضر مع الخبز الأوربي ثم من الفاكهة قدراً من البرقوق والكمثرى والعنب ، وهي بلا شك من الأشجار التي زرعها سلفه الإيطالي ، فغني ثمارها خلقه العربي . وكنت أود أن أجد نفسى جالساً القرفصاء في صحن الدار مع هؤلاء المشايخ حول نار متقدة نتناول من عليها شواء الماعز والخراف فنأكله كما كانوا يأكلون .

وإذا كان رجائي قد خاب في أمر البداوة القديمة عند الغداء فقد جاء ما أصلح خاطري في المراسيم البدوية الحديثة المتعلقة بعملية صنع الشاي وتقديمه للزائرين ، إذ جاء الابن الأكبر لصاحب الدار ، وجلس عند باب الحجر ، وأمامه موقد عليه إناء فيه ماء ، وبجواره إناءان أخريان وثلاثة أطباق من القش المجداول ، على الواحد سكر أسمر ناعم ، وعلى الثاني شاي ، وعلى الثالث ربطة كبيرة من عيدان النعناع الأخضر . وبدأت صناعة الشاي في حركات سريعة بحذق ومهارة ، فهو يصب الماء المغلي على الشاي من إناء إلى إناء ثم يعيد صبه من جديد ، وغايته من ذلك أن يركز الشاي إلى أقصى حدود التركيز ، وهو إذ يضع السكر مع الشاي بحفنته في نفس الإناء يتذوقه في قدح من الأقداح الصغيرة التي ستدار علينا ، ثم يعيد الكرة ثانية وثانية إلى أن يضبط مرارة الشاي خللاً فدرجة نعطيره ، ذلك لأن التقاليد العربية البدوية تقضى بأن يدار الشاي على الزوار مرات ثلاثاً : الأولى يكون فيها المذاق ، والثانية حلواً ، والثالثة يضاف إلى الشاي فيها النعناع والسكر لدرجة الإشباع . وهكذا أديرنا عشرين الأقداح الصغيرة دورات ثلاثاً ، الواحدة تلو الأخرى تتبادل فيها نفس الأكواب على اختلاط بعضها ببعض بغير كلفة . فإذا ما انتهينا من شرب الشاي الحلو المعطر ، أصبحنا في حل للرحيل . ولكننا قبل أن نعود أدرأجنا شاهدنا بعض حجرات المنزل والاسطبلات والمخازن المنظمة التي بناها الإيطاليون على مثال أحدث المزارع الأوربية ، وكذلك البئر التي يجسبون فيها مياه الأمطار ، والحديقة العامرة بالكروم وأشجار الفاكهة والرياحين ، ثم ركبنا وركب معنا شيخ مشايخ العربان لتوديعنا إلى بابنا في الشحات .

رحلة في برقة

وأخيراً وليس آخراً أذكر زيارة قرية البيضا على مقربة من الشحات على الطريق المؤدى غرباً إلى المرج . وسيدكر التاريخ هذه القرية لسببين : الأول أنها كانت مركز قيادة رومل ، والبيت الذي كان يدير منه دفة الهجوم الإفريقي قائم يسكنه اليوم السيد إدريس زعيم السنوسية . والسبب الثاني هو أن موسولبي عند زيارته برقة قبيل هجوم المحور على مصر جمع مشايخ عربان المنطقة في الساحة الكبرى بتلك القرية ليخطب فيهم خطبته المشهورة في كلمة واحدة لاثنائي لها ، فصعد مدرجاً عالياً بنى خصيصاً لهذا الغرض — وهو موجود إلى اليوم — وأخرج من جيبه منديلاولوح به لسامعيه مشيراً إليه صارخاً « مصر » ثم وضع المنديل في أحداً كمامه وانصرف ، كأنما الاستيلاء على مصر في نظره من السهولة بقدر استخراج ذلك المنديل من جيبه ووضعه في كفه . فسبحان مخلف الظنون !

عزير سوربال عظيم